الحداثة وسؤال القيم في الوعي الجزائري

تاريخ الارسال:22-06-2018	تاريخ القبول: 06-08-2018	تاريخ النشر:15-10-2018

د.رباني الحاج
جامعة معسكر- الجزائر
Elhadj.rebani@univ-mascara.dz

الملخص:
يعيش المجتمع الجزائري صراعا على مستوى القيم أو بالأحرى على مستوى الوعي بالقيم، إذ لازال مترددا بين الإنخراط في منظومة القيم الحداثية بكل ما تقوم عليه من فردانية وعقلانية وحرية وعلمانية، وبين البقاء في دائرة منظومة القيم التقليدية بما تقوم عليه من روح جماعية محكومة بالتبعية والطاعة والإنقياد والمحافظة على التراث المؤطر عادة بالقيم الدينية، هذا ما نريد الوقوف على بعض أبعاده وخلفياته ومبرراته الذاتية والموضوعية.
الكلمات المفتاحية: الوعي; القيم; الحداثة; الشخصية; التاريخ.

Abstract:
Algerian society lives in a struggle at the level of values or, rather, at the level of awareness of values. It is still reluctant to engage in the modernistic system of values with all its individualism, rationality, freedom and secularism, and to remain in the circle of the traditional value system based on a collective spirit governed by subordination, obedience and guidance. And the preservation of the heritage usually framed by religious values, this is what we want to stand on some of its dimensions and backgrounds and self-justification and objectivity.
key words: Awareness; Value; Modernity; Personal; Date.

تقديم:
لم تعد صلتنا بالحداثة وما تتضمنه وتستلزمه من قيم الحرية والعقلانية والفردانية مسألة اختيارية تتعلق بمنطقنا الصوري حول ما نسميه عادة " الهوية "، إنما أصبحت واقعا نعيشه ونتعرض لانعكاساته على حياتنا الفردية والجماعية، وهذا بسبب القدرة الهائلة على الانتشار السريع عن طريق وسائل الإعلام والاتصال، وتبادل التأثير بين الثقافات والمجتمعات، ليس على مستوى النخب فقط كما كان الأمر من قبل، بل بين أفراد وفئات المجتمع على اختلاف مستوياتها الثقافية وانتماءاتها الثقافية والإيديولوجية، ولما كانت قيم الحداثة ذات صلة مباشرة بالتطورات العلمية والتكنولوجية، فهي قيم لم يعد ينظر إليها باعتبارها قيما من إنتاج هذه الثقافة أو تلك بل أخذت ثوبا إنسانيا كونيا، وهو الأمر الذي جعل كل الثقافات والمجتمعات بدون استثناء، تعيش هذا التداخل بين المحلي والكوني، بين ما يفصلها عن غيرها وما يربطها بذلك الغير، لم يكن المجتمع الجزائري استثناءا في هذا الأمر، فهو كغيره من المجتمعات الأخرى، يعيش هذا المأزق والتعقيد الذي ينعكس بشكل واضح على حياة أفراده وفئاته الإجتماعية، يصل أحيانا إلى حد العنف في مجال القيم، فبين الرغبة في الحفاظ على منظومة قيم تقليدية من جهة والعجز عن الوقوف أمام المد

الحداثي المتدفق من جهة أخرى، **تتشكل أزمة القيم في السياق الجزائري المعاصر التي تعيدنا باستمرار إلى طرح مشكل الهوية بكل ما يحمله من الصراعات والتناقضات ذات الأبعاد الإيديولوجية والسوسيولوجية في سياق تاريخي معاصر أكثر تركيبا وتعقيدا وهو ما يدفعنا إلى طرح السؤال التالي: كيف تلقى المجتمع الجزائري قيم الحداثة بشكل أدى به إلى العيش في أزمة قيم ؟**

1-جدلية الوعي والفعل:

للمجتمع الجزائري تاريخ يكاد يكون فريد من نوعه في علاقته بالحداثة الغربية وما تتضمنه من قيم الحرية والعقلانية والمواطنة، فهو مجتمع عرف أطول فترة استعمارية على يد أمة ارتبطت حضارتها بأكبر ثورة للقيم الإنسانية في العصر الحديث، إنها مفارقة صارخة، انعكست نتائجها في الوعي الجزائري الحديث والمعاصر، مما جعله وعيا مركبا بشكل معقد ومتناقض أحيانا، إذ أنه ينظر إلى كل ارتباط بالحداثة وقيمها أنه دعم للاستعمار وقيمه، في حين أن هذا الوعي هو نفسه يرى أن أي دفاع عن قيم المجتمع التقليدي هو بقاء في عالم ما قبل حداثي تجاوزه الزمن ولم يعد لقيمه أي معنى، من هنا أصبحت مفاهيم المجتمع منشطرة على ذاتها، متناقضة ومتضاربة فيما بينها، وأصبح من الصعب إيجاد صيغة تتجاوز هذا الانشطار والتمزق الذي يخترق منظومة القيم بكاملها في الدين والسياسة والاقتصاد، بل يخترق حتى وعي الأفراد ويؤثر على توازنهم النفسي ووعيهم الاجتماعي.

لذلك يذهب الراحل بختي بن عودة إلى القول في تشريحه لهذا الوضع " إن عداوة الجزائري للتأمل في ذاته وعدم الحسم مع مكوناتها النفسية واللاهوتية والتربوية بل وحتى المعيشية المترسبة في لاوعيه عبر مجمل التواريخ الفاعلة في جسده وكينونته وثبات ثقافاته البعيدة والقريبة خارج الاحتفال بما يتبصره (وليس ما يبصره) هي كيفية أخرى لا ترضى بطرق التمييز والفصل بين الزمان والتاريخ، بين الفردانية والمواطنة، بين ماضيها الجريح وحتمية الخروج إلى لغة الحداثة كعقد صلب ومتفتح مع الرموز التي لا تحتاج إلى شرعيات وزخارف " [1] .

إنه قلق الكينونة الذي يتولد عن عجز الذات عن تحديد رؤيتها لذاتها في عالم القيم، وبما أن القيم هي تعبير الذات عن كينونتها على مستوى الفكر والسلوك معا فإن أي اضطراب في رؤيتها لتلك القيم سيؤدي ضرورة إلى أزمة شاملة لجميع مجالات النشاط الإنساني، وهو ما يخلق لديها وعيا هشا مفككا وممزقا، أي وعيا فاقدا للقدرة على الانسجام مع ذاته أو الانتظام في أي منظومة قيم متكاملة، الشيء الذي ينتج عنه خللا في بنية العلاقات الاجتماعية، بحيث تصبح علاقات بدون رابط معقول ومفهوم لدى الأفراد فيصبح الجسم المجتمعي بكامله يعاني من أزمة رابط اجتماعي بلغة علماء الاجتماع، أو ما أطلق عليه عالم الاجتماع الفرنسي " إيميل دوركايم " " اللامعيارية أو الأنوميا " وهي ظاهرة مرضية تعيشها المجتمعات عندما تعيش حالة تفكك أو عندما تدخل في أزمة قيم، فالقيمة بمعناها الواسع هي " بنية الواقع من حيث هي ملازمة لعملنا أو هي نوع الشروع في العالم ووسمه بسمات مطالبنا الدائمة والمؤقتة ".[2]

إن انخراطنا في الواقع الفعلي، لا يكون حقيقيا إلا في إطار قيمي يوجه جميع نشاطاتنا، أي نظام قيم منبثق من ذاتيتنا وليس مجرد صورة خارجية أو متعالية، إن أي هوة بين الذات والقيم تؤدي إلى عجز في الإدراك وقدرة على الفعل معا، وبمعنى آخر لا يمكن بناء قيم منفردة خارج منظومة قيم متكاملة أي لا يمكن بناء القيم على أسس مصطنعة أو مفترضة فحسب، بل تحتاج القيم إلى ذات تدعمها وتشكل وعاءا

[1] - بختي بن عودة، رنين الحداثة، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 1999، ص 130.

[2] - موسى عبد الله، فلسفة القيم- الأصول والامتدادات، منشورات الاختلاف، منشورات ضفاف، ط1، الجزائر –بيروت، 2018، ص 15.

لها، ولذلك مهما أنجزنا من خطابات حول الحرية والعقلانية والفردانية والمواطنة والقانون والدولة في دلالاتها الحديثة تبقى الأزمة قائمة في الوعي ما لم نستشعر " جوانية " هذه القيم، أي انبثاقها من شعورنا بالحاجة الفعلية لها، وليست مجرد مواكبة خارجية لضرورات العصر الذي ليس بالضرورة هو عصرنا ما دمنا لم نستطع بعد الانخراط في قيمه، فهذا الانقسام في الوعي، لا يترك مجالا لبناء منظومة قيم صلبة، سواء كانت تقليدية أو حداثية، مما يجعل صدام القيم هو المسيطر على وعينا نظريا وعمليا وهو ما يعطل تحول قيم الحاثة إلى عالم الفعل.

إننا لا زلنا نعيش اللحظة الديكارتية على مستوى القيم ولو أننا لم نبلغها على مستوى الفكر، فالقيم كثيرا ما تفلت من خطابات الفكر، لا زلنا نفصل بين الداخل والخارج، بين الفكري والمادي، بين النفسي والجسدي، بين الحقيقة والقيمة، بقدر ما تكون لنا جرأة على مستوى الفكر بقدر ما نكون محاطين بالخوف والحذر والتردد على مستوى القيم، لذلك ظل خطاب الحداثة مجردا عن كل فاعلية عملية وأصالة اجتماعية، وكثيرا ما نعبر عن ذلك بالقول، ما تقوله الحداثة صحيح لكنه لا يتماشى مع قيمنا، وبلغة دينية، تكون قيم الحداثة في أيدينا لكنها غير مستقرة في وجداننا.

في هذا " المدى المختل تظهر الذات الجزائرية بوصفها ذاتا حزينة ومتعطشة، يتيمة وغير مفهومة، متوحدة في أكبر صور الإذعان للمصائر الغريبة أو المجهولة. فهي لا تتحدد كما هو ظاهر في الاستقرار الخاص بالوضعانية وتاريخية التأصيل المتواصل كتسطيح وكفلكلورية حمقاء، سوى لتصوغ تجربة مفصولة عن الاستعمالات العقلانية والمترسخة لهذه الرموز عبر الاستبصار والاستنطاق "[3].

2-السياق التاريخي والوعي المجتمعي:

للتاريخ دوره في السياق الجزائري كما أشرنا، فالصراع الذي شهدته الجزائر لم يكن صراعا ماديا فحسب بل كانت القيم في قلب هذا الصراع " وكان من الطبيعي أن ينال هذا الصراع من مقومات الشخصية الجزائرية على المدى البعيد خصوصا بعد أن أجهدها صراعها ضد المد الاستعماري المتواصل الذي أراد أن يجتث أصولها ويمحو ملامحها، فوضع التشريعات والنظم التي تتلائم مع سياسته وتمس الحياة الاجتماعية من جميع نواحيها، هادفا من وراء ذلك إلى خلق جيل جديد، ينشئه هو بنفسه على أن يتحلل من كل ما يربطه بوطنه وبماضيه، وبكلمة واحدة: القضاء على شخصيته المستقلة المتميزة " [4]

هذا الصراع في مجال القيم الثقافية والاجتماعية، خلف أثرا عميقا في سيكولوجية الإنسان الجزائري، فربط في وعيه بين قيم الحداثة والحداثة كواقع تاريخي نتج عنه استعمار استيطاني لم يكتفي باستيطان الأرض بل امتد إلى استيطان الوعي، وهو ما أدى ببعض الملاحظين إلى القول في حديثهم عن الشخصية الجزائرية: " إن الأهالي هناك، يعاملون بقوانين مخصوصة، فهم محرومون من حرية الكتابة وحرية الاجتماع وحرية السفر وحرية مطالعة الكتب والجرائد، نعم يصعب على الذي يعرف حب الفرنساويين للحرية والمساواة أن يصدق ذلك، ولكن من يتكلف مشقة الزيارة إلى الجزائر يتحقق أن ما هو جائز في بلاد فرنسا غير مباح للمسلمين في المستعمرات ".[5]

هذه الملاحظة، تعبر بشكل عميق عن مأزق الحداثة في صورة حامليها والمتشبعين بقيمها، وهو مأزق تنتقل آثاره وتداعياته إلى الوعي الجزائري الذي وجد نفسه في حيرة من أمره، ووجد نفسه أمام عوائق نفسية واجتماعية فرضتها عليه ترسبات تاريخية محددة، إذ ليس من السهل الفصل وحتى التمييز

---

[3] - بختي بن عودة، المرجع السابق، ص 131.

[4] - محمد السويدي، مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون –الجزائر، 1984، ص 36.

[5] - المرجع نفسه، ص 37.

بين قيم الحداثة والغرب الإستعماري، فارتبطت الحداثة بالغرب، والغرب بالاستعمار وأصبح الوعي بالحداثة مشروط بالموقف من الاستعمار والاستيطان.

3- المشروع الإستعماري وصدمة الحداثة:

لم يخلق هذا الوضع اصطداما مع الغرب الاستعماري فحسب، بل مع قيم الحداثة ذاتها، ومن ثم خلق أزمة داخل الذات نفسها انتقلت إليها عبر علاقتها المتأزمة بالآخر، لذلك يقول مصطفى الأشرف أن " الجزائر في بداية القرن العشرين كانت في مفترق الطرق، فالأسئلة التي كانت مطروحة آنذاك هي " من نحن " ؟ وأي طريق نتبع ؟ ...فكل حركة وكل حزب وكل جمعية ثقافية كان لها نظرتها ورؤيتها لمستقبل البلاد، وكانت أفكارها متأصلة في أوساط محدودة لكنها تعبر عن قوى عميقة. إلا أنه يرى أن ما يهمنا، ليس تاريخ هذه الأفكار وإنما تاريخ التصورات الذي من شأنه أن يقدم لنا عرضا لحركية الجزائر وتناقضاتها وانغلاقاتها " [6]

هكذا لعبت السياقات التاريخية دورا مهما في تعميق أزمة القيم، إذ بغض نظر عن مدى استعدادنا لتلقي قيم الحرية والعقلانية من داخل قيمنا التراثية، زادت قيم الحداثة اغترابا لأسباب موضوعية شوهت صورتها في وعينا، ومن ثم تم تصويرها على أنها نقيض للهوية في جميع أبعادها، بل أصبحت الهوية في حد ذاتها تعيش صراعا بين مكوناتها، وانتماءاتها ودوائرها المختلفة في الانحصار والاتساع، حتى أن مشروع الدولة في ذاته لم يجد له أساسا صلبا داخل الذات يدعمه ويقويه، فإما أننا نعود إلى قيم القبيلة والعشيرة لنبعثها من جديد وإما أن نتجاوزها على اعتبار أنها عائقا أمام وحدة المكون الأصيل في تاريخنا وهويتنا والذي هو " الأمة بمفهومها الواسع"، وهو ما جعلنا نرى أن الدولة والأمة لا يلتقيان في واقعنا إذا ما أخذناهما بالتصور الحديث للقيم السياسية والاجتماعية والثقافية.

[6] - محمد حربي، الثورة الجزائرية، سنوات المخاف، ترجمة الحبيب عياد، صالح المثلوثي، موفم للنشر، سلسلة صاد، إشراف علي الكنز، 1994، ص 106.

4-الدولة والمجتمع وأزمة القيم:

إننا لم نجد بعد إطارا نضع بداخله قيم الحداثة، المجال الوحيد الذي حاولنا تحديثه هو الدولة، لكنها بقدر ما بدت حديثة وحداثية من الخارج بقدر ما ظلت مستلهمة لقيم غير حداثية وبقيت مستندة إليها، ذلك أنها سلطة بدون مشروع مجتمع، أي سلطة لا يهمها انتقال المجتمع من وضع مأزوم إلى وضع مستقر على مستوى القيم، وكأنها تحافظ على اللا استقرار أكثر مما تحافظ على الاستقرار، وهذا بسبب رغبتها في الحفاظ على استقرارها هي وليس استقرار المجتمع، هذا اللاتوازن بين الدولة والمجتمع، جعل كل منهما يرى نفسه نقيضا للآخر بل يستمد كل منهما وعيه ووجوده من هذا التناقض الذي كثيرا ما يجعل المجتمع ينظر إلى الدولة أنها تريد أن تغزوه بقيم الحداثة، في حين ترى الدولة أن المجتمع عائق أمام التطور والتقدم المطلوب لأنه يرفض الانخراط في قيم الحداثة.

والحقيقة أنه لا الدولة ولا المجتمع مستعد للسير بعيدا في غرس قيم الحداثة، كل منهما ينتقي ما ينسجم مع ميوله ورغباته الخاصة في مجال القيم، وهو ما أعطانا قيما هشة ومشتتة، بدون منظومة قيم منسجمة ومتكاملة، فهذا الانشطار جعل كل منهما يرى في الآخر وسيلة له فقط، وكلاهما يعيش منقسما بين ظاهر وباطن إذا ما استعملنا تعبير " إريك فروم " " الإنسان بين الجوهر والمظهر" وهو عنوان كتابه " الذي يتحدث فيه عن الخيار بين التملك والكينونة كقضية أساسية في تعاليم أساتذة الحياة العظام ".[7]

وهي إشارة إلى الانقسام والانشطار الذي يعيشه الإنسان الحديث، بين الباطن والظاهر، بين الداخل والخارج، بين الوعي والوجود، إنها المسألة نفسها التي نستشعرها في واقع لا هو تقليدي بالكامل ولا هو حداثي بالكامل، قيم حداثية في تنافس وصراع مع قيم تقليدية، كلاهما يعيش أزمة، كلاهما يريد أن يحتل مساحة واسعة في وعينا، كلاهما نريده بشكل ونرفضه بشكل آخر.

5-الشخصية الجزائرية والوعي الموضوعي للقيم:

يكذب مصطفى الأشرف هؤلاء الذين يرون أن الشخصية الجزائرية لم يكن لديها أي وعي سياسي وتاريخي يسمح لها بالتمييز بين الأمور المختلفة والقيم المختلفة إذ يقول " وقد سقنا هذا الكلام لكي نبرهن أن الجزائريين الذين دينهم واحد كالأتراك، كانوا يفرقون بكل وضوح بين الشريعة والإخاء في الدين من جهة، وبين المتطلبات القومية والسياسية من جهة أخرى، ونضيف إلى ما سبق أن استخدام الأمير لليهود في بعض المأموريات السياسية الهامة جدا النسبة لمستقبل الدولة الجزائرية الفتية، لدليل آخر على أن فكرة التعصب غير معقولة ".[8]

إن الصورة التي تم رسمها للإنسان الجزائري وعلى الرغم من رفضه لها إلا أنها انعكست على وعيه وقيمه، بل رسمت في وعيه صورة سلبية عن ذلك الآخر، وهو ما جعله يرى أن قيم الحداثة المرتبطة به، ليست قيما إنسانية بل هي قيم ثقافية وحضارية لمجتمعات مختلفة عنه، ومع ذلك دخلت تلك القيم، قيم الحداثة إلى حياتنا الفكرية والاجتماعية وشكلت جانبا لايستهان به من وعينا الاجتماعي والسياسي والثقافي، مما جعلنا نقف موقفا نقديا من قيمنا التراثية والتشكيك في جدوى الكثير منها وفي مدى اقتناعنا الفعلي بصلاحيتها في واقعنا الراهن، وهو ما أدى إلى اشتداد المواجهة بين قيم القبيلة والعشيرة والشرف والمروءة وما يقابلها من قيم الفردانية كالعقلانية والاستقلالية والحرية والمواطنة وحقوق الإنسان عموما والمرأة خصوصا، فازداد وعينا القيمي في سياق التوسع الحداثي انشطارا، بسبب العجز عن الحسم

[7] - إيريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة سعد زهران، عالم المعرفة، العدد 140، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989، ص35.

[8] - مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص ص 49- 50.

والبقاء في دائرة الانتقاء والتوفيق والتلفيق أحيانا لأسباب عملية، لكن بدون غطاء نظري يؤطر ما نقوم به في واقعنا اليومي، أي أننا نتعاطى مع القيم بشكل نفعي براغماتي، لا باعتبارها قناعات ثابتة في الوعي ومؤطرة للفهم، إذ لا زال مفهوم الحلال والحرام يمشي جنبا إلى جنب مع مفهوم العقلانية، ومفهوم الشرف يتماشى جنبا إلى جنب مع مفهوم حرية المرأة، ومفهوم المروءة والرجولة يتماشى مع مفهوم المواطنة، وكأننا لازلنا نبحث عن طريقنا في عالم القيم، لذلك " فاستمرار الانشطار وعدم القدرة على إبطال مفعولاته هو الصورة المتحكمة في راهن الذات الجزائرية، ولأنها تأسست في هذا الأفق أي العجز عن التوفيق بين القيم المحلية كمعيوش ثقافي والقيم الصاعدة كوجود حضاري، فهي لم تكتب بعد اسمها كتاريخ أساسا وليس كحاجة تشبع غريزة الإنوجاد أو نداء السماء، لذلك يداهمها معنى التشبث بالعيش ويعصف بقواها التي تغذت من التاريخ القريب لشرعية "الثورة" كمجد وقداسة وكبرياء وليس كعبرة وتأمل واختراق "[9] .

- **خاتمة:**

إن أزمة القيم في جانب كبير منها ارتبطت بصعوبة الانتقال من مرحلة الثورة إلى مرحلة الدولة، إذ ارتبطت الدولة كحدث تاريخي كبير في تصورنا بالقيم التقليدية أكثر من ارتباطها بقيم الحداثة، وهو ما صعب إقامة الدولة على أسس العقلانية والحرية، وبتحميل هذا الحدث الضخم مضامين قيمية معينة، ازداد تقبل قيم الفردانية والعقلانية والمواطنة صعوبة في الوعي الاجتماعي، ولأن القيم التقليدية بقيت تؤطر الوعي الفردي والجماعي باسم الهوية، والقيم الحداثية ازدادت تغلغلا في واقعنا الاجتماعي وجدنا أنفسنا أمام وعيين متصارعين يتقاسمان ضميرنا الفردي والجمعي، أحدهما يبرر ذاته بمنطق الهوية والآخر يحاجج عن نفسه بمنطق الحداثة، فأضحت العلاقة بين الهوية والحداثة متشنجة تعكس أزمة وعي، أزمة ضمير، أزمة قيم تعيشها ذات جزائرية منشطرة على نفسها، أزمة على مستوى دوائر الهوية، كما على مستوى أسس وقيم الحداثة، وبما أن " **القيمة نظام يلازم الوجود**" [10]، فإن هذا الانقسام والانشطار يجعلنا أمام نظامين ووجودين للقيم لم نعرف بعد أيهما يجب تغليبه على الآخر.

المراجع والمصادر:

1- إيريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة سعد زهران، عالم المعرفة، العدد 140، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989.

2- الأشرف مصطفى، الجزائر، الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

3- بختي بن عودة، رنين الحداثة، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 1999.

4- حربي محمد، الثورة الجزائرية، سنوات المخاض، ترجمة الحبيب عياد، صالح المثلوثي، موفم للنشر، سلسلة صاد، إشراف علي الكنز، 1994.

[9] - بختي بن عودة، المرجع السابق، ص ص 133- 134.
[10] - موسى عبد الله، المرجع السابق، ص 15.

5- عبد الله موسى، فلسفة القيم- الأصول والامتدادات، منشورات الاختلاف، منشورات ضفاف، ط1، الجزائر – بيروت، 2018.
6- السويدي محمد، مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون – الجزائر، 1984.